فن القـــراءة

للأديب نصرى عطا الله سوس

القراءة فن له قواعد وأصول . ومهما جد القارئ واجتهد فلن يحصل على ثمرة مجهوده إلا إذا اتبع تلك القواعد والأصول اتباعاً دقيقاً . وكلامنا هذا لا ينصب على كل ما يقرأ ، بل على الأدب وحده باعتباره أثمن وأرفع أنواع القراءة ؛ ولا على كل من يقرأ ، بل على من يعتبر الكتاب صديقاً ومرشداً ومعلماً ، ومن تضطرم فى قلبه جذوة الشوق إلى المعرفة وفهم الحياة والتمتع بها إلى أقصى حد ممكن واكتناه أسرارها

***

ينبع الأدب من قدس أقداس النفس ، يضمنه الأديب زبدة حياته، وصفوة اختباراته ، وما يضطرم فى قلبه من آلام وآمال وما يصطرع فى ذهنه من آراء عن حقيقة الحياة والموت والقدر والذة والألم والطبيعة والخالق وغيرها من مشكلات الحياة التى لن تحل أبداً . والأديب هو ذلك الشخص الدقيق الاحساس الرقيق الشعور الذى يتأثر بكل عوامل الحياة أتم التأثير وأقواه ، والذى منحته الطبيعة القدرة على التعبير عن آرائه وإحساساته التى دفعت به إلى الكتابة . والكتاب الجيد من أثمن النعم التى تتيحها الحياة لمن حبته الذوق والفهم ، لأنه خلاصة حياة عظيمة غنية واسعة الآفاق بعيدة الغور؛ وهو ينبوع عذب، فيه رى وفيه حياة لأثمن وأرفع ناحية من نواحى الطبيعة الانسانية . فالكتاب الجيد يعمق ويهذب شعورنا ويوسع آفاق نفوسنا ويقوى قدرتنا على التفكير ويفتح أعيننا على أنواع من الجمال لم نكن نعرفها أو نحس بها . والانسان مفهوم بحب الحياة ، ودّ لو عاش أطاراً مضاعفة وتذوق كل ماتفيض به الحياةمن لذات وآلام ، ولكن العمر قصير . ومن جهة أخرى فالحياة بخيلة لا تتيح أو تسمح لكل إنسان أن يقلب أبصاره بين آفاقها ويخوض بحارها باحثاً عن دررها . لم تتح الطبيعة هذا إلا لأشخاص معدودين جعلت كل واحد منهم أشبه بفيثارة تستنطقها كل أنغامها ، وهم الأدباء والشعراء . وبقراءة ما خلف هؤلاء نشبع حب الحياة فى نفوسنا . فالكتب تضيف أعماراً إلى أعمارنا ، وهى سياحة فى المكان والزمان . فالقارئ الجالس على كرسيه فى غرفة ضيقة يطوف بذهنه فى فجاج الأرض كلها ، بل يرقى إلى السماء ويتملى أنوارها ، ويرتد إلى الماضى السحيق يحدق فى كهوفه وظلماته ، ويتقدم إلى المستقبل البعيد يتملى بهاءه وجلاله . فاذا كان الأدب على هذه القيمة والأهمية فكيف نقرأه ؟

١ — أول شروط القراءة هو حسن اختيار الكتاب، فالعمر لا يتسع لقراءة كل ما كتب فى لغة واحدة — ناهيك بأدب أمتين أو ثلاث — ولا كل ما كتب يستحق القراءة . واللاحظ أن الأدباء — وهم أحسن من يجيدون القراءة — لا يعيرون أهمية كبيرة لما يكتب فى عصرهم ، بل يوجهون كل اهتمامهم إلى الكتب التى أثبت الزمن قوتها وحيويتها وقدرتها على البقاء . والزمن وحده هو الذى يحكم للكتاب أو عليه ؛ والزمن وحده هو الذى حفظ لنا هوميروس وأفلاطون وشكسبير وأضرابهم ، لأن أدبهم يشتمل على عناصر الحياة الجوهرية التى لا حياة بدونها . وكم من أديب عاش ومات فى غمرة النسيان ! وكم من الاندماج فيها عفواً وبغير ما دافع منا كما يندمج المتفرج فى حلبة الرقص دون أن يشعر ، ويحملوننا بذلك على أن نهز فى خبيئة نفسنا أوتاراً متحفزة ترقب من يلمسها لتصدح وترتفع نغماتها

فسواء أكان الفن رسماً أو تصويراً أو شعراً أو موسيقى فلا غرض له إلا أن يُبعد الرموز الناقصة والاصطلاحات المشروعة المسلم بها فى المجتمع وكل مايستر الحقيقة عنا ليقف بنا إزاء الحقيقة بالذات وجهاً لوجه . إن الجدل بين المذهب الوجودى والمذهب المثالى فى الفن نشأ من نزاع على تلك النقطة . فلا شك فى أن الفن ليس إلا مظهراً جلياً مباشراً للحقيقة ، بيد أن هذا السمو فى الادراك يستلزم القطيعة مع العرف المصطلح ، ونزاهة غريزية محصورة في الحس أوالضمير ، كما يستلزم كذلك شيئاً من اللامادية فى الحياة وهى ما اصطلحوا على تسميته داعماً بالمذهب المثالى ، بحيث يمكن القول ، بغير ما تورية أو مجاز ، بأن المذهب الوجودى هو فى العمل بالذات، بينما المذهب المثالى هو فى النفس، وأنه لا يمكن العودة إلى تلمس الحقيقة إلا بقوة الخيالية دون سواها

هنرى برجسون
ترجمة سليم سعدة

أديب تألق ثم خبا ! وكم من أديب يعيش على فضول الكتاب والقراء. علينا أن نهمل كل هؤلاء وأمثالهم وأن ننتخب ما نقرأ من بين أحسن ما كتب. هذا إذا أردنا أن نحيا حياة ذات قيمة.

٢ — العامل الثاني هو إجادة القراءة. فهناك قراء يوجهون كل همهم إلى الاحاطة Comprehensoin وينسون الاجادة Apprehensoin، والعنصران قلما يجتمعان إلا في القليل النادر. وقراءة كتاب واحد قراءة تفهم وإمعان أجدى من قراءة عشرة كتب قراءة سطحية. إن الكتاب — كما قلنا — هو زبدة حياة المؤلف، والقارئ النابه لا يتجه إلى مجرد القراءة العابرة، بل إلى تكوين صلات وشارقات مع المؤلف. فلنتبصر بسبب أعيننا صداقة المؤلف يجب أن نفهم الكاتب كما نفهم صديقاً : نحيط بظروف حياته : آماله وآلامه، أحلامه وهمومه، فكهاً أو وقوراً، متفائلا أو متشائماً، وهكذا ... والخلاصة أنه يجب أن نفتح قلوبنا ليصب الكاتب فيها دمه ونترك ذلك الدم يجري حاراً في عروقنا

٣ — العامل الثالث هو نظام القراءة، فكثير من القراء يتبعون في مطالعاتهم سبيلاً ملتوية : كتاب من الشرق وآخر من الغرب؛ كتاب حديث وآخر قديم؛ وهكذا دون ضابط ولا نظام. وهذا المسلك قلما يثمر بل الواجب أن نختار كاتباً معيناً ونقرأ كل ما كتب، لأن كتب الكاتب ما هي إلا جوانب متعددة لشخصية واحدة، ولا حق لنا أن نتحدث عن كاتب أو نصدر عنه حكماً إلا إذا درسنا أدبه دراسة وافية كاملة. ويجب أن نتبع في هذه الدراسة نظاماً خاصا، فيجب أن ندرس كتبه حسب ترتيب كتابتها، فلا نتناول إنتاجه في أوان شيخوخته، ثم في أوان شبابه الأول، ثم في أوان نضجه، بل يجب أن نبدأ بقراءة باكورة إنتاجه، ثم ما تبعه، ثم ثالث كتاب أخرجه، وهكذا ... وبهذا فقط يتاح لنا أن نعرف تأثير الحياة والتجارب في تطور شخصية الكاتب : كيف شق لنفسه طريقاً إلى فلسفته؟ وكيف خلص إلى آرائه عن مشكلات الكون؟ هل ابتلته الحياة بالتبرم واليأس؟ هل شك في عدالة الكون وعاف الحياة؟ أم هل انجلت عن ناظريه غمامات الصبا وغواياته ودعا إلى الحياة الفاضلة مؤمناً بالله مبرراً سلوكه مع الانسان؟ هل بقي ساخراً لا يعرف لنفسه فلسفة ولا يخلص إلى عقيدة حتى ذهب في طريق من ذهب؟ وما أثر ظروف حياته من فقر وغنى وصحة ومرض في نفسه؟ هل تغلب عليها واحتفظ بنضارة قلبه وسلامة روحه؟ أم تركها تتسرب إلى أدبه وتكسبه لونها الخاص؟ هل تأثر بروح عصره وجارى سلفه ومعاصريه أم أثر هو في روح العصر ووجه الأدب في طرق جديدة وتناول بالنقد والتفنيد ما استهجنه ودعا إلى مثل جديدة؟ وما أسباب كل هذه المسائل ودواعيها ...؟ هذه كلها موضوعات يهتم بها القارئ الحصيف، ولكن لا يمكنه أن يكون رأياً عادلا عنها إلا إذا قرأ بنظام. بهذا فقط يتأتى لنا دراسة الحياة نفسها دراسة شاملة تفهمنا روحها وطبيعتها وفلسفتها. إن التفكير المجرد قلما يخلص بالمرء إلى نتائج سليمة، وعلماء النفس في الوقت الحاضر يدرسون مخلفات الأدباء بهذه الطريقة التي أسلفنا ويكونون نظرياتهم على هدى تلك الكتب، ذلك لأنها تنبع من صميم الحياة الواقعية، والحياة أعمق وأشمل من أن يحكم المرء عليها وليس وراءه إلا تجاربه؛ والفلسفة قلما تسعف الانسان بعقيدة تغير حياته وتجملها، بل هي غالباً تبتليه بضروب الشك في قيمة الحياة والحيرة في معناها. ولكن الأدب وحده ينبع من أعماق الحياة ويصور ما نعانيه ونحسه من آلام وآمال، وهو الصورة الحقيقة الصادقة للحياة كما هي. بعكس الفلسفة فهي سياحات «فكرية» في عالم المجهول، وما من مذهب فلسفي إلا ومذهب آخر يناقضه، وكل له دعاته وبراهينه؛ فلا عجب إذاً أن يترك علماء النفس كتب الفلسفة إلى الأدب يهتدون بهديه في تكوين نظرياتهم

٤ — العامل الرابع هو المقارنة. كيف يمكننا بعد ذلك أن نقدر الأديب تقديراً صادقاً ونصدر حكمنا له أو عليه؟ لا يمكننا أن نفعل ذلك إلا إذا درسنا معاصريه وتبينا أين يتفق معهم وأين يختلف عنهم، لأن ظروف الحياة التي أثرت فيهم واحدة لأنهم أبناء عصر واحد، ولكنها أثرت فيهم تأثيراً مختلفاً، وسبب هذا الاختلاف هو تباين طبائعهم ومشاربهم، وبالمقارنة والموازنة بين المعاصرين يتسنى لنا أن نميز الأديب الكبير من غيره. فدراسة معاصري شكسبير مثل بن جونسن ومارلو وبومنت وفلتشر،

توضح لنا عظمته وجلاله . وإذا درسنا يوروبيدس وسوفوكاس أتى كل منهما نوراً ساطعاً على شخصية الآخر . وكذلك إذا درسنا شارلس دكنز مع وليم ثاكرى ، وتنسون مع براوننج ، والأخطل وجرير والفرزدق ، وبشار وأبو نواس ، وأبو تمام والبحتري ، وهكذا ...

٥ — بقى أن نشير إلى عنصر هام من أهم العناصر التى تمكن القارئ من الاستفادة التامة مما يقرأ وهو الصبر والتجاوب مع الكاتب . وكم من قارئ يترك الكتاب بعد قراءة صفحة أو اثنتين لأن الكاتب يختلف عنه ميولا ومشرباً ، وليس أخطر على القارئ من اقتصاره على قراءة ما يتفق ونظرته إلى الحياة . ومن ملاحظات الكاتب الألمانى أميل لدفيج أن القراء فى العصر الحاضر يطالعون الكثير من القصص لا لغاية إلا تبرير آثامهم وزلاتهم بحجة أن أبطال القصة سلكوا نفس المسلك ، وهذا جبن وخور . والواقع أن الكتاب الذي يهاجم أفكارنا وعقائدنا يفيدنا أكثر من غيره . والمعركة بين الكتاب والقارئ ليست بأقل متعة أو جدوى من معركة شريفة بين شخصين إذ يجتهد كل فى تبرير رأيه باظهار براهينه وأدلته ويحاول إفحام خصمه بتفنيد مستنداته، وفى ذلك ما فيه من إذكاء الفكر وشحذ الذهن ومعاودة النظر فى الآراء والأفكار والمعتقدات وتبديلها أو تعديلها على هدى نتيجة المعركة . فلم لا نسلك المسلك نفسه مع الكتب ؟ ولعل هذا يجدى مع الكتب أكثر مما يجدى مع الأشخاص ، لأن النفس الانسانية مزيج من الخير والشر، وقد يعمد الانسان إلى هزيمة خصمه بأى ثمن — حتى التضحية بالحق — مدفوعاً بالأثرة وحب النصر والفخر ، ولكنه لا يسلك هذا السبيل مع الكتب خصوصاً إذا كان أصحابها قد ماتوا من زمن

يقول الفيلسوف الانكليزى « باكون » :

« لا تقرأ كي تناقض أو تفند ، ولا كى تؤمن وتسلم جزافاً، ولا كى تجد موضوعاً للحديث والمناقشة ، بل كى تتبصر وتتأمل »

والتأمل ضرب من الصلاة ... والصلاة جنة الروح !

نصرى عطا الله سوس

الأحـــــلام

هل فى حقائق الحياة الثابتة ما يفوق الحقيقة التى تؤكد لنا أن الأحلام تصح ؟!

إن هذا العالم المدهش العجيب الذى يتجدد كل يوم أمام أنظارنا الحائرة ؛ بل إن هذا العالم المفعم بالروائع والآيات الفائقة حد التصديق فى الأمس القريب ، يجيش بربوات الأحلام التى لا تلبث أن تتحقق اليوم ، ويتوج تحققها هامة التفكير الطويل، والانتظار المترقب المتطلع ، والكفاح الوجيع الصبور ، والفشل الذى يعقب الفشل ، ثم الفوز المبين أخيراً !

وما من معجزة تحيط بنا — ذات الطائرات وآلات الصور المتحركة وأجهزة الجهر (الميكروفون) والأسلاك البرقية واللاسلكية والقطارات والسفن — قد كانت فى أحد الأيام حلماً تحركت به بعض الخواطر ، وهمس فى طائفة من الضمائر الإنسانية

ولقد كان العالم يهزأ بالحالم ويسخر ويشك فى أمره أعواماً مديدة ؛ إلا أن الحالم لا بد أن يبوء بالفوز

وقل من جد فى أمر يطالبه   واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقد يرى الحالم أن الناس سينظرون من خلال الحجر ، أو يتكلمون عبر البحر ، أو يحلقون فوق السحاب ، أو يبصرون شيئاً على بعد عشرة آلاف ميل ، فيتم ذلك جميعه . وقد يحلم أنه يتناول قطعة من الرخام ويصوغها فى قالب يأسر الألباب على مر الأحقاب ، أو أنه يرسم صورة سيدة ذات ابتسامة رصينة مفكرة ويجعل الناس يتأملون هذا الابتسام بخشوع لا يبليه تقادم العهد وكر الأزمان

وقد يحلم أنه يكتب شيئاً يستنزف الدموع من مآقى الذين لم يولدوا بعد ؛ أو أنه يؤلف قطعة من الموسيقى تدوى فى أروقة الدهور ... فيتم له ذلك كله ...

إن المجاهد فى سبيل فكرة عظيمة أو مقصد نبيل ؛ والمخترع الذى يكد فى معمله والعالم الأديب الذى يستخرج ودائع الغيوب ويحل دقائق الأشكال ويزيل معترض الأشكال ؛ والشعب الذى يكافح لنيل الحرية ؛ إن كلا من هؤلاء لا يحلم عبثاً ، كما أن الجنس البشرى الذى يحن إلى الأصلح والأبقى ، ويتوق فى قرارة النفس الانسانى إلى حياة وادعة تفيض بالأمن والسعادة لا يحلم سدى، لأن الأحلام تصح وتتحقق

ترجمة : (الزهرة)